موارد تغذية الجند المسلمين في فتوحات العصر الراشدي

المدرس الدكتور
مشتاق بشير الغزالي
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

موارد تغذية الجند المسلمين في فتوحات العصر الراشدي

المدرس الدكتور
مشتاق بشير الغزالي
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

المقدمة :

لم تبقَ المؤسسة العسكرية على حالها المتواضع كما في عصر الرسالة من قلة العدد والإمكانيات ، لاسيما ما يتعلق بتجهيز وتموين الجند المقاتلين بالغذاء خلال خروجهم للمعارك [١] .

فكما هو معلوم ان قلة الامكانيات مرتبط بحالة الفقر والحاجة الشديدة التي كان يعاني منها المسلمون الاوائل [٢] ، ولكن هذه الظروف سرعان ما تغيرت خلال العصر الراشدي بفضل حركة الفتوحات الاسلامية النشطة التي عادت على الدولة بموارد ضخمة لم يكن العرب من قبل قد حازوا مثيلاً لها ، حتى وقف الخليفة عمر بن الخطاب حائراً في كيفية توزيع هذه الاموال الكثيرة المتدفقة عليهم بالعد ام بالكيل ، كأموال الخمس التي جلبت من بلاد فارس الى المدينة وهو يقول :" والله لا يجنها سقف دون السماء حتى اقسمها بين الناس ... فأمر بها فوضعت بين صفي المسجد ، وأمر عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن ارقم فباتا عليها ، ثم غدا عمر بالناس عليه فأمر بالجلابيب فكشفت عنها ، فنظر عمر الى شئ لم ترَ عيناه مثله من الجوهر والؤلؤ والذهب والفضة ... ثم قال : انحثوا [٣] لهم او نكيل لهم بالصاع ؟ قال : ثم اجمع رأيه على ان يحثوا لهم فحثا لهم " [٤] ، ويبدو ان ذلك كان قبل ان يتم استحداث الديوان وتصنيف العطاء [٥] .

وعلى الرغم من كثرة الأموال المتدفقة على مركز الخلافة والتطور الملحوظ على المؤسسة العسكرية في العصر الراشدي قياساً لحال الجند المسلمين في عصر النبوة ، الا انها بقيت غير متكاملة ، لعدم توفر الأجهزة الساندة للجند ، كما هو حال الجيش في العصور الإسلامية اللاحقة [٦] .

فلأجل ان يبقَ الجندي متيقظاً في رصد تحركات العدو ، وكي لا تتأثر روحهُ المعنوية أو قواه الجسدية اثناء القتال ، كان من الضروري ان تؤمن له احتياجاته كافة لاسيما الغذائية منها ، الا ان الجيوش الإسلامية خلال العصر الراشدي لم تحتوي على جهاز يشرف على تأمين المؤن الغذائية لها .

ومع توسع حركة الفتوحات الإسلامية وعلى جبهات متعددة ، ولكثرة أعداد المقاتلين ، ولطول المسافة الفاصلة بين مركز الخلافة من جهة وبين تلك الأصقاع البعيدة من جهة أخرى ، وفي ظل ظروف مناخية متباينة الصعوبة من حر أو برد ، ظهرت الحاجة لسد هذا النقص وتعويض عدم وجود جهاز يأخذ على عاتقه تأمين الغذاء للمقاتلين .

فلجأ المسلمون إلى طرق عدة في سبيل تعويض هذا النقص ، ونجحوا في ذلك مما ادى الى استمرارهم في التوغل ومواصلة الفتوحات الاسلامية . ان المتابعة الدقيقة لروايات الفتوح ورصد الموارد المهمة التي كانوا يعتمدون عليها في تموينهم ، جعلتنا نقف على طرق متعددة للتموين يقف في مقدمتها : الحصول على الغذاء كجزء من اتفاقيات الصلح التي كانت تتم بين المسلمين وأهالي البلاد المفتوحة ، او الحصول على ما هو مُعد لتموين العدو بعد هزيمته كجزء من الغنائم ، او طرق اخرى سنبحثها بالتفصيل .

أولاً : المؤن كجزء من الجزية

لم يكن استحصال الغذاء كجزء من الجزية اجتهاداً من قادة الجيش ، ولم يرتبط الأمر برغبة أهل تلك البلاد ، بل كان معالجة حكيمة وضرورية من قبل الخلافة ، لأنها وجدت انها من أفضل الطرق التي من خلالها يمكن تأمين الغذاء للمقاتلين . نعم لقد كانت طريقة منظمة خاضعة لأوامر مركزية صادرة من السلطة العليا من الدولة ، فقد ورد عن الخليفة عمر بن الخطاب انه كتب إلى قادته في الشام والجزيرة يأمرهم بالا يفرضوا الجزية الا على من يستحق ان تفرض عليه ، وحددها على أهل الذهب بأربعة دنانير ، وأضاف عليهم أرزاق المسلمين من الحنطة على كل انسان من اهل الشام والجزيرة مدَين [٧] ومن الزيت ثلاثة اقساط [٨] في كل شهر وجعل عليهم كذلك ودكاً [٩] وعسلاً وكانت الاوضاع قد استقرت لصالح المسلمين في الجزيرة والشام بحدود سنة (٢٠هـ)، وفي مصر جعل على كل انسان أردباً [١٠] وكسوةً وضيافة ثلاثة ايام وأضاف على ذلك ان يُضَيف أهل البلد الجند ثلاثة أيام ، كان ذلك في سنة (٢١هـ) [١١] .

ولان الإسلام دين الرحمة والإنسانية لا يسعى لتكليف النفس أكثر من طاقتها فقد خففت تلك الفروض في الجزية إلى حدٍ لا يرهق الناس ولا يسبب عجزهم ، ومع ذلك التخفيف ، لم يتخلَ المسلمون عن المؤن كجزء من الجزية المستحصلة ، لأنها كانت أفضل ما يؤمن للمقاتلين مؤنهم ، وكان التخفيف يراعي إمكانية الفرد المادية وقدرته ، فقد أخذت الجزية من أهل الجزيرة على ثلاثة أصناف : ثمانية وأربعون درهماً وأربعة وعشرون واثنا عشر ، كلاً حسب قدرته وعلى كل فرد ان يدفع مع جزيته مدّا من القمح وقسطان من الزيت وقسطان من الخل [١٢] .

يتبين لنا الان ان الدولة كانت حريصة على تأمين المؤن الغذائية للمقاتلين ، ولكن بُعد المسافة بين مركزها المدينة المنورة وميادين القتال في الشام او العراق أو مصر أو غيرها من المناطق الأخرى ، اضطرها لتأمين المؤن بهذه الطريقة وهي استحصالها كجزء من الجزية المفروضة على البلاد المفتوحة ، من دون ان تحدد نوعية الغذاء انما كان ذلك خاضعاً لما ينتج في هذا البلد او ذاك من غذاء .

هذا المنهج في التموين غدا ظاهرة بارزة خلال العصر الراشدي ، اذ يمكن ملاحظة ذلك من خلال متابعة روايات الفتوح ، واللافت للنظر ان المسلمين قد حصلوا على أنواع عديدة من الطعام لم يعتادوا الحصول عليها في بيئتهم الصحراوية ، وهذا

التنوع بالتأكيد يرتبط بتنوع بيئة وطبيعة البلاد التي وصلوا اليها فلكل بلاد محاصيل وغذاء قد تختلف عن سواها من سائر البلدان ، فأهل بصرى مثلاً صالحوا المسلمين على ان يؤدوا عن كل حالم دينار وجريب[١٣] من الحنطة [١٤] ، في حين ان أهل حمص صالحوا على أنصاف دورهم ودينار عن كل حالم وجريب طعام في السنة عن كل رأس [١٥] ، اما في دمشق فقد التزم كل رجل من اهلها بدفع ديناراً وجريب حنطة وخلاً وزيتاً لقوت المسلمين [١٦] ، وقد حصل المسلمون على الحنطة والزيت والعسل والخل من اهل مصر لما دخلها عمرو بن العاص [١٧] .

ومن الضروري التأكيد على ان المسلمين لم يتعاملوا مع اهل البلاد المفتوحة والمحررة معاملة مُذلة او قاسية ، بدليل انهم كانوا يغيرون من شروطهم في استحصال الجزية اذا تعلق الامر برغبة وظروف الطرف الثاني (دافع الجزية) ، كما حصل مع اهل الجزية بمصر الذين صولحوا في خلافة عمر بن الخطاب سنة (٢١هـ) على دفع دينارين عن كل رجل فضلاً عن ارزاق الجند من الحنطة والزيت والعسل والخل ، ولكنهم رغبوا فيما بعد بدفع دينارين عن كل رجل بدل تلك الارزاق ، فاصبح على كل رجل ان يدفع اربعة دنانير [١٨] ، ويبدو ان هذه الرغبة مرتبطة بشحة الارزاق في ذلك البلد مما اضطرهم لدفع الاموال بدلاً عنها .

لقد اصبح هذا المنهج من اهم طرق التموين الذي اعتمدت عليه الجيوش الاسلامية ، وقد ساعد على ذلك ما تمتعت به تلك البلاد من غنى ووفرة المحاصيل الزراعية ، مما جعل قادة الجيش يضعون الارزاق كاهم الاولويات في استحصال الجزية ، فهذا كتاب عياض بن غنم الى صاحب الرها عند محاصرته للمدينة في سنة (١٦هـ) لايغفل فيه فرض مقدار معين من الغذاء على كل دافع جزية ، لانه يدرك اهمية هذا القوت في تموين جيوش المسلمين ، وقد جاء فيه :" بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عياض بن غنم لاسقف الرها انكم ان فتحتم لي باب المدينة ان تؤدوا إليّ عن كل رجل ديناراً ومدَي قمح فأنتم امنون على انفسكم واموالكم ومن تبعكم ..." [١٩] .

واستناداً الى ذلك يمكن القول ان استحصال المؤن الغذائية كجزء من الجزية المفروضة على البلاد المفتوحة كان احد اهم مصادر تموين الجيوش الاسلامية خلال العصر الراشدي .

ثانياً : المؤن عن طريق الضيافة أو الهدايا

فضلاً عن اعتماد المسلمين في تموينهم على الجزية ، فان جهودهم في تحرير اهل البلاد الخاضعة تحت حكم الفرس الساسانيين او الروم البيزنطيين ، كانت تقابل بامتنان كبير من هؤلاء وكرم واسع ، فيقدمون للمسلمين كل ما لذ وطاب من طعامهم على سبيل الضيافة واطعام الضيف ، وهذا الامر قد رصدناه في روايات عدة ، كالرواية المنقولة عن حروب التحرير في العراق ، اذ ضيف اهل احدى قرى باروسما المسلمين بعد ان حرروهم في سنة (١٣هـ) ، وقاموا باعداد الطعام واحضروه امام ابي عبيد بن مسعود الثقفي قائد الجيش ، فلما رآه قال :" ما انا بالذي آكل هذا من دون المسلمين ! فقالوا له : كُل فانهُ ليس من اصحابك احد الا وهو يؤتى من منزله بمثل هذا

او افضل فأكل ، فلما رجعوا اليه سألهم عن طعامهم فأخبروه بما جاءهم من الطعام "[٢٠] .

بناءً على ذلك نستطيع القول ان الجيوش الاسلامية كانت تتعامل برحمة وانسانية مع اهالي البلاد المفتوحة والمحررة ، فلم نلحظ ظاهرة الاستبداد والقهر والغصب التي طالما عرفت عن الجيوش الغازية على مَّر التاريخ ، طيلة تتبعنا لروايات الفتح والتحرير ، بل ان بعض الروايات قدمت لنا صورة مشرقة عن عدالة المنهج الاسلامي في التعامل مع الامم والشعوب ، واوضحت نظرة الاسلام للانسان كقيمة عليا وأوجبت التعامل معه على هذا الاساس ، ففي معرض نقل ابن اعثم الكوفي[٢١] لمسيرة جيش الامام علي بن ابي طالب (ع) نحو صفين سنة(٣٦هـ) يقول فيه :" فلما نزل الانبار اذا باهلها قد اقبلوا يقودون البراذين[٢٢] وقد حملوا اليه الاطعمة والعلوفة فقال لهم علي (ع) ما هذه الدواب التي نراها معكم ؟ فقالوا : يا امير المؤمنين هذا خُلق منا نعظم به الامراء وهي هدية منا اليك ، وهذا طعام اتخذناه لك ولاصحابك ، فقال لهم علي (ع) : اما الدواب فاننا نأخذها منكم ونحسبها لكم من خراجكم ، واما الطعام فاننا لا نقبله منكم الا بثمن ، فقالوا : يا امير المؤمنين فأن لنا في اصحابك معارف ، فأذن لنا ان نهدي لهم هذا الطعام وهذه العلوفة ، فقال : ذلك اليكم ولست ممن يمنعكم من الهدية ولا امنع اصحابي عنها ، ولكن ان اخذ احد من اصحابي منكم شيئاً على طريق الغصب فاعلموني بذلك والسلام " .

واذا ما تأملنا في مضمون هذه الرواية ، فاننا سندرك عظمة المنهج الاسلامي وحرصه على تحقيق العدالة الانسانية ، رافضاً اي شكل من اشكال الاستبداد والقهر والغصب ، وما عبارة امير المؤمنين وخليفة المسلمين الامام علي (ع) الا تطبيق حَيّ لذلك المنهج العادل وهو يقول لاهل الانبار : ان اخذ احد من اصحابي منكم شيئاً على طريق الغصب فاعلموني بذلك . ناهيك عن رفض الامام قبول الهدية الا بثمن ، والسماح لاصحابه بقبولها ، فأين تجد هذه الانسانية الرفيعة وهذه العدالة المتناهية في التعامل مع الاخرين ، عندما تستقرئ تاريخ معاملة الجيوش الفاتحة للشعوب المغلوبة على امرها ؟

من كل ذلك نستطيع القول ان قبول الهدية او الضيافة التي توضع كأحد شروط الصلح او التي تأتي من رغبة اهل البلد المتصالح مع المسلمين ، هي الطريقة الثانية التي كان المسلمون يعتمدون عليها في تموينهم بالغذاء ، وان لم تكن مؤنة دائمة يعول عليها المسلمون كما هو الحال مع الطريقة الاولى .

ثالثاً : المؤن كجزء من غنائم المعارك

الغنائم كما هو معلوم كل ما يخلفهُ المنهزم على اثر معركة فتقع بيد المنتصر[٢٣] ، ولان الغنائم عادةً ما تتنوع بين اسلحة ودواب واموال وغيرها مما كان بحوزة المنهزم ولم يستطع اخذه معه ، فهي قد تحتوي على اطعمة واشربه كان العدو يتجهز بها لنفسه ، حينها تصبح مدداً مهماً للمسلمين لاسيما في اوقات العسرة ، اذ غالباً ما ينفذ غذاء المسلمين وشرابهم قبل او اثناء القتال ، وقد تطول بهم هذه الحال حتى تسبب لهم

الانهاك والجوع والعطش ، فلا يطفأ ذلك الظمأ ولا تملأ تلك البطون الفارغة غير الاطعمة التي عادةً ما يجدونها في معسكر العدو بعد هزيمته .

ان اهمية هذه الاطعمة لا تقتصر على كونها ستطفأ جوع المسلمين وعطشهم فحسب ، بل هي المؤن التي ستؤمن لهم مواصلة تحركاتهم نحو مزيد من الفتوحات ومزيد من النجاح وكي يواصلوا نشر الاسلام ، وهنا تكمن اهمية المؤن كجزء من الغنائم .

ففي رواية فتح السقاطية بكسكر[٢٤] سنة (١٣هـ) جاء فيها :" ان الله هزم فارس ، وهرب النرسي وغلب على عسكره وارضه وخرب ابو عبيد ما كان حول معسكرهم ... وجمع الغنائم فرأى من الاطعمة شيئاً عظيماً ، فبعث فيمن يليه من العرب فانتقوا ما شاءوا ، واخذت خزائن نرسي ، فلم يكونوا بشئ مما خزن افرح منهم بالنرسيان[٢٥] ، لانه كان تحت حمايته ، فجعلوا يطعمونه للفلاحين ، وبعثوا بخمسهُ الى عمر وكتبوا اليه ان الله اطعمنا مطاعم كان الاكاسرة يحمونها ، واحببنا ان تروها ، ولتذكروا انعام الله وافضاله " [٢٦] .

يتبين لنا ان الاطعمة التي يحصلون عليها كغنائم على اثر المعارك ، هي من بين اهم الموارد التي تمون الجند المسلمين للاستمرار والتوغل كثيراً نحو تحرير وفتح البلاد ونشر الاسلام بين اهلها ، اذ لا نستغرب ان يعمد المسلمون الى التزود بالمؤن عن طريق الغنائم ، والانطلاق مرة اخرى نحو منطقة جديدة ، مثلما نجد في الرواية الاتية عن فتح خراسان والتي جاء فيها :" دخل المسلمون الى حصن همذان فاحتووا عليه وما قدروا من الاطعمة والعلوفة ، وغير ذلك واقاموا بهمذان اياماً ثم رحلوا منها يريدون الري " وكان ذلك في سنة (٢٣هـ) [٢٧] ، وكما هو واضح من الرواية هذه ان عمليات الفتح تتم وحركة الجيوش تستمر وتتواصل مستفيدةً في تموينها مما يقع بايديهم من غنائم تحتوي على الغذاء .

وعلى الرغم من ان الاعتماد على هذه الطريقة في تموين الجيوش قد لايأتي دائماً بنتائج طيبة ، فكميات الاطعمة من الغنائم قد تكون قليلة لاتتناسب وحاجة المسلمين ، او قد يستغل العدو هذه الخاصية ضد المسلمين ، فيعمل على صنع المكائد والمصائد مستخدماً الطعام للايقاع بهم والقضاء عليهم ، لاسيما بعد ان لاحظ الحركة المستمرة للفتوحات الاسلامية ، واسلوب المسلمين في التموين ، فقد نقل بعض المسلمين من ان الفرس في سنة (١٥هـ) قد مزجوا السم بالطعام للايقاع بهم في المدائن وهذا نص الرواية :" صارت الفرس الى المدائن فاتخذوا طعاماً ومزجوه بالسموم كي يقتلوا بذلك المسلمين اذا نزلوا ساباط المدائن ... واقبل المسلمون حتى نزلوا ساباط المدائن وقد اضر بهم الجوع والعطش ، فنظروا الى طعام كثير وماء صاف وقد ملئت به الحياض ، فأكلوا وشربوا فلم تضرهم السموم شيئاً " [٢٨] .

ومن الضروري التوقف قليلاً عند عبارة (فلم تضرهم السموم شيئاً) ، فالقياسات الطبيعية قد لاتقبل مضمون هذه الرواية ، ولكن علينا ان ننظر بعين الاعتبار للعناية الالهية التي كانت الى جانب المسلمين في اوقات العسرة والشدائد ، فشملتهم برعايتها

وسددت خطاهم في سبيل نشر الاسلام ، وقد وردت روايات كثيرة دالة على ذلك لاسيما في العصر النبوي[٢٩] ، عليه لانستبعد ان تكون العناية الالهية حاضره ومؤثره هنا .

ولان المسلمين كانوا معتادين على حياة التقشف في بلادهم ، ولم يألفوا سوى انواعٍ بسيطة من الطعام ، فقد دهشوا كثيراً لما وقعت بين ايديهم أطعمه وفواكه واشربه لم يتذوقوها من قبل ، فبعد ان نصرهم الله تبارك وتعالى على جابان قائد الفرس ، وقع طعام العدو بايديهم ، فتعجب قسم منهم وهم يقولون ما هذه الرقاق البيض[٣٠] ؟ فيجيبهم من قد عرفها قائلاً ومازحاً : انها رقيق العيش [٣١] . وفي الشام سأل المسلمون خليفتهم عمر بن الخطاب عن احد انواع شراب العنب ومدى شرعيته ؟ [٣٢] .

بناءً على ما سبق نستطيع القول ان الغنائم بما تحتويه من اطعمة ، كانت تشكل مورداً مهماً من موارد تموين جيوش المسلمين ، وقد ساهمت بشكل او باخر في دعم مسيرة الفتوحات الاسلامية الواسعة ، فضلاً عن موارد التموين الاخرى .

رابعاً : الخلافة وتجهيز المسلمين بالمؤن

لقد استعرضنا انواع عدة من مصادر تموين الجيوش ، وكل ما استعرضناه لم يُشر الى دور مباشر للخلافة في تموين الجيوش المنطلقة نحو الفتوحات ، وهذا الامر لابد ان يدعو للتساؤل : هل ان الدولة في ذلك الوقت لم تكن قادرة على تجهيز الجيوش ومواصلة امدادها بالمؤن طيلة سنوات الفتوح ؟ ثم هل ان عدم مواصلتها دفع الامدادت الغذائية للجند يأتي بسبب كثرة اعداد الجند المقاتلين ، وهي غير قادرة على تأمين احتياجاتهم بالكامل ؟ ام ان المدينة نفسها لا تنتج من الطعام الا ما كان يكفي لاطعام سكانها ، ولذلك كانت الخلافة غير قادرة على امداد الجند بالطعام من المدينة ؟ ام ان المسافة بين المدينة من جهة وتلك الاصقاع البعيدة التي وصل اليها المسلمون من جهة اخرى كانت كبيرة جداً ، مما جعل من الصعب على الخلافة امداد الجند بالطعام ؟

وهنا لابد من الاشارة الى ان حركة الجيوش الاسلامية في حروب التحرير والفتح استمرت لسنوات عديدة وعلى مدى جبهات عدة ، ولذلك لا يمكن ان نحدد منهجاً واحداً كانت الخلافة تتبعه وتعتمد عليه في تموين تلك الجيوش ، فظروف الخلافة الاقتصادية وظروف تلك الجيوش والمناطق التي وصلوا اليها ، كل ذلك كان يلعب دوراً مهماً ومؤثراً في لجوء الخلافة لمناهج معينه في تموين الجيوش .

ونحن في هذا المقام لاندعي ان الخلافة تخلت عن دور المسؤولية في هذا الجانب ، اذ نجد بين ثنايا الروايات ما يشير الى دور مهم كالرواية المنقولة عن فتوح العراق والتي ترد فيها الاشارة الى ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يبعث من المدينة للمقاتلين بالغنم والجزر[٣٣] ، وبطبيعة الحال هم لم يقتصروا في طعامهم على لحم الاغنام والابل القادمة من المدينة فقط ، بل لابد انهم كانوا يعتمدون كذلك على مصادر اخرى كما وبينا اصناف مهمة منها ، لقد حصلنا على اشارات بسيطة دالة على ان الخلافة

كانت ترسل بالامدادات كلما كانت تمتلك القدرة على ذلك وتحاول ان تعوض باللجوء الى الجزية او الغنائم او غيرها من الطرق اذا لم تكن قادرة على ارسال الامدادات للجيوش ، وهنا تكمن رغبة الخلافة ومتابعتها لاستمرار وصول المؤن للمسلمين مهما بلغت بهم الاصقاع بُعداً عن مركز الخلافة .

ان المدينة وهي مركز الدولة ونقطة انطلاق الجيوش ، كانت تمر في بعض الاوقات بنقص المواد الغذائية ، مما يدعو الخليفة الى امدادها بالمؤن من المدن الاخرى ، وفي هذه الحال تكون هي عاجزة عن تأمين الغذاء لسكانها ، فكيف بها تؤمن المؤن للجيوش المنطلقة منها ، وهذا ما تبينه الرواية الاتية :" كتب عمر بن الخطاب في سنة احدى وعشرين الى عمرو بن العاص يعلمه ما فيه اهل المدينة من الجهد ، ويأمره ان يحمل ما يقبض من الطعام في الخراج الى المدينة في البحر ، فكان ذلك يحمل ويحمل معه الزيت ... ثم يجعل في دار المدينة ، ويقسم بين الناس بمكيال " [٣٤] .

الظروف الاقتصادية الصعبة وتأثيرها على المقاتل المسلم

نعود ونؤكد على الظروف الاقتصادية التي كانت المدينة تمر بها ، او التي كان يمر بها الجند المسلمون ، فنقول ان هذه الظروف هي التي كانت تفرض اسلوب التموين ، ولذلك من الممكن جداً ان يتعرض المقاتل المسلم الى ازمات مهلكة من جوع او عطش ، اذا ما سارت تلك الظروف في غير صالحه ، ولم يستطع الحصول على المؤن ، حينئذ من الطبيعي ان يؤثر ذلك على مسيرة الفتوحات تأثيراً كبيراً ، ولكن في مقابل هذه الظروف المؤثرة والتي ممكن ان تعرقل مسيرة نشر الاسلام ، يظهر ابداع العقل العربي الذي يتحدى كل الظروف الصعبة والمهلكة وصولاً للهدف الاسمى الذي خرج لاجله وهو اعلاء كلمة لا اله الا الله ، فليس غريباً ان روايات عديدة تصور لنا الفدائية الكبيرة والجرأة والاقدام العظيمين الذين تحلى بهما المقاتل المسلم في مواجهة ظروف الجوع والعطش ، ومن ذلك ما فعله المسلمون حينما امرهم الخليفة ابا بكر بالتوجه من العراق نحو الشام وباقصى سرعة ، حينها سلكوا طريق نجد فالجوف فوادي السر فقراقر ثم قطع البادية المعطشة بين هذه وبين القريتين جنوباً وشمالاً [٣٥] .

تروي معظم كتب الفتوح والتاريخ هذه المخاطرة ، اختراق البادية المهلكة املاً في سرعة الوصول وامداد المسلمين بالشام في حربهم مع الروم ، وقد نقل ابن اعثم الكوفي [٣٦] وصفاً لهذا المسير والذي جرى في سنة (١٥هـ) جاء فيه :" أقبل رافع بن عميرة الطائي ... الى خالد بن الوليد فقال ... انا اعرف هذه المفازة [٣٧] ولا يخفى عليّ موضع ان شاء الله ، فقال له خالد بن الوليد : كم تكون هذه المفازة ؟ قال : مسيرة خمسة ايام وما فيها ماء الا في موضع وانا اعرف به ، قال خالد : فاني قد جعلتك دليلاً ... فقال رافع بن عميرة ... فاني قد رضيت بذلك ولكن أبغني خمسة وعشرين جملاً ، فقال : ألقوا اليها العلف اليابس وامنعوها من الماء ، ثم امر بها فألقى اليها العلف فجعلت الابل تعتلف وقد منعت من الماء ، ثم اوردها بعد ذلك فشربت حتى امتلأت اجوافها من الماء ثم امر بها فكعمت [٣٨] لكي لا تجتر ، وامر الناس ان يستوفروا من

الماء ، ثم امر الناس بالرحيل . قال : فكانت كلما سار يوماً امر بخمس من تلك الجمال فنحرت ثم شق اجوافها ثم امر بالجفان [٣٩] فاحضرت وجعلوا يعصرون ما في كروش الجمال من الماء في الجفان ويمزجونه بالقليل من الماء العذب ، ويسقي الخيل والبغال والحمير ، واما ما كان معهم من الابل فانها لم تذق الماء خمسة ايام ، فلم يزل القوم على ذلك ، كلما نزلوا ذبحوا خمسة من الابل فسقط ما في اجوافها ، فلما كان اليوم السادس سار القوم ، وهم لا يشكون انهم قاربوا العمران . قال : ورمدت عين الدليل فلم يبصر سهلاً ولا جبلاً وآيس الناس من انفسهم فأضر بهم العطش وخافوا على انفسهم الهلاك وحميت عليهم الشمس ، فقال خالد بن الوليد للدليل : ويحك يا رافع ! اين الطريق واين الماء ؟ فقال : ... لا ادري ، ولكن انظروا ميمنة وميسرة فأن رأيتم شجرة عوسج فقد نجوتم والماء تحت الشجرة والا فقد هلكتُ وهلكتم . فقال خالد : انا لله وانا اليه راجعون . قال : وقفت الدواب ولم يتهيأ لها ان تسير ونزل الناس وجعلوا يمشون ويقودونها وقد آيسوا من الحياة وينظرون ميمنة ميسرة فإذا هم بشجرة قد لاحت لهم فكبروا وقصدوها واذا تحتها عين من الماء غزيرة ، فكبر القوم ونزلوا فشربوا وسقوا مامعهم وحمدوا الله عز وجّل على ذلك ، فقال خالد : ويحك يا رافع لقد كدنا ان نهلك وتهلك معنا ... " .

وهكذا نجد رجاحة العقل العربي وجرأته وإقدامه في الظروف الصعبة والمهلكة ، كل ذلك ادركناه من خلال متابعة روايات التموين في الفتوح .

لقد بينت جملة من الرسائل المتبادلة بين قادة جيش المسلمين وبين قادة الروم البيزنطيين ، الفارق الكبير بين مقدرات ارض المسلمين (شبه الجزيرة) وبين ما كان تحت سيطرة الروم من ارض الشام ، كالرسالة التي بعثت الى ابي عبيدة بن الجراح والتي ينذره الروم فيها من مغبة الوقوف بوجههم قائلين :" اخرج انت ومن معك من اهل دينك من بلادنا هذه التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والاعناب والخير الكثير وارجعوا الى بلادكم بلاد القحط والجوع والبؤس والفقر والا اتيناكم فيما لا قبل لكم به من الخيل والجنود ..." [٤٠] ، فرد عليهم ابو عبيدة برسالة جاء فيها :" واما ما ذكرتم من بلادنا انها بلاد البؤس والشقاء فقد صدقتم انها لكذلك كما ذكرتم وقد ابدلنا الله عنها ببلادكم هذه ليبلوا صبرنا وشكرنا ..." [٤١] ، وكان ابو عبيدة قبل وقعة اليرموك سنة(١٥هـ) قد سأل اصحابه واستشارهم ، لما رأى كثرة الروم وتأهبهم في امر القتال ، فقال له قيس بن هبيرة المرادي :" ... لا ردنا الله الى اهلنا سالمين ان خرجنا من الشام ، وكيف ندع هذه الانهار المتفجرة والزروع والاعناب والذهب والفضة والديباج ونرجع الى قحط الحجاز وجدبه . فقال ابو عبيدة : صدق والله قيس اترجعون يا معشر المسلمين الى بلاد الحجاز وتدعون لهؤلاء العلوج القصور والبساتين والانهار والطعام والشراب والذهب والفضة ..." [٤٢] .

ان دراسة مصادر مؤن المسلمين في فتوح العصر الراشدي ، دراسة بكر لم يسبق ان احيط بها ، فالغالب على دراسات الفتوح التركيز على نتائج المعارك ، وتأثيرها على انتشار الاسلام ، من دون الخوض في تفاصيل كان لها دور كبير في تحقيق تلك

النجاحات المهمة في حركة الفتوح . ان تتبع الباحث لروايات الفتوح وتقصي المتعلق منها بالمؤن فيه كثيٌر من الجهد والتركيز ، وهو بالحقيقة جزء من مشروع دراسة واسعة تهتم بتتبع مؤن جيش المسلمين ومصادرها ومراحل التطور التي طرأت عليها عبر مراحل العصور الإسلامية ابتداءً بعصر الرسالة وانتهاءً بالعصر العباسي .

هوامش البحث:

١- ينظر: الغزالي ، مشتاق بشير ، مؤن المسلمين في غزوات عصر الرسالة ، بحث غير منشور .
٢- ينظر:الملاح ، هاشم يحيى ، حكومة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، مطبعة المجمع العلمي ، (بغداد _ ٢٠٠٢) ، ص ص ١٦٢-١٦٨ .
٣- الحثو: هو الجذر اللغوي لـ(حثا) حثا عليه التراب حثواً هالهُ عليه ، وحثوتُ التراب وحثيتُ حثواً وحَثياً ، ولايكون الحثو الا بالقبض والرمي ، وقول الفقهاء يكفيه ان يحثو ثلاث حثوات من الماء اردوا به ثلاث غرفات على التشبيه . ويبدو ان المراد بالحثو هنا عد النقود من خلال عدد غرفات اليد ، وكأنها احدى طرق عد النقود انذاك . ينظر:المناوي، محمد عبدالرؤوف(١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر، (بيروت-١٩٨٩) ، جـ١،ص٢٦٧ .
٤- ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت هـ)، الخراج ، ط٢، (القاهرة-١٣٥٢هـ)، ص٤٧ .
٥- ينظر: الملاح ، هاشم يوسف ، الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، مطبعة جامعة الموصل ، (الموصل-١٩٩١) ، ص٣٧٨-٣٧٩ .
٦- ينظر: الجنابي ، خالد جاسم ، تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر الاموي ، (بغداد – ١٩٨٤) ، ص ١٣٣-١٤٥ .
٧- المَد: ضرب من المكاييل وهو ربع صاع وهو قدر مد النبي والصاع خمسة أرطال ، والمد بالضم مكيال وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز والشافعي ورطلان عند أهل العراق والصاع أربعة أمداد ، وقيل إن أصل المد مقدر بأن يمد الرجل يديه فيملأ كفيه طعاما . ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم الافريقي المصري(ت ٧١١هـ) ، لسان العرب ، دار صادر ،(بيروت-لا.ت)، جـ٣ ، ص٣٩٦ .
٨- القسط: مكيال وهو نصف صاع . ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ٧، ص ٣٧٩ .
٩- ودك: ودك الودك الدسم معروف وقيل دسم اللحم ودكت يده ودكا و ودك الشيء جعل فيه الودك ولحم ودك على النسب ذو ودك وفي حديث الأضاحي ويحملون منها الودك هو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه و ودكته توديكا وذلك إذا جعلته في شيء هو والشحم ، و الوديكة دقيق يساط بشحم . ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١٠ ، ص ٥٠٩ .
١٠- أردب: والأردب ست ويبات والويبة مثل القفيز والويبة تسعا وثلاثين ألف دينار . ينظر: ابن كثير ، ابي الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، (بيروت-لا.ت)، جـ٧ ، ص ٣١٦ .
١١- البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر(٢٧٩هـ)،فتوح البلدان ،مكتبة النهضة المصرية ،(القاهرة-لا.ت) ، جـ١، ص١٤٦ .
١٢- المصدر نفسه ، ص٢١١ .
١٣- الجريب : هو نوع من المكاييل ، وهو من الطعام والأرض مقدار معلوم ، والجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع والمساحة وهو عشرة أقفزة كل قفيز منها عشرة أعشار فالعشير جزء من مائة جزء من الجريب . ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١ ، ص ٢٦٠ .
١٤- البلاذري ، فتوح البلدان ،جـ١ ، ص١٣٤ .
١٥- دروزة ، محمد عزت ،تاريخ الجنس العربي ،مطبعة المكتبة العصرية ،(بيروت-١٩٦٢م) ، ص١٢٧ .
١٦- البلاذري ، فتوح البلدان ، جـ١ ، ص١٤٨ .
١٧- المصدر نفسه ، ص٢٥٤ .
١٨- المصدر نفسه ، ص٢٥٤-٢٥٥ .
١٩- المصدر نفسه ، ص٢٠٦ .

٢٠- الطبري ،أبي جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، ط٤ ،(مصر - ١٩٧٩م) ، جـ٣ ، ص٤٥١ .
٢١- ابن اعثم الكوفي ، ابي محمد احمد (ت ٣١٤هـ) ، الفتوح ، دار الندوة الجديدة ، (بيروت – ١٩٦٨) ، جـ٢ ، ص٤٦٨ .
٢٢- البراذين: مفردها برذن ،والبرذون الدابة وسيرته البرذنة والأنثى برذونة قال رأيتك إذا جالت بك الخيل جولة وأنت على برذونة غير طائل وجمعه ، والبراذين من الخيل ما كان من غير نتاج العراب . ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ١٣، ص٥١ .
٢٣- الغنائم: الغنيمة ما أوجف عليه المسلمون بخيلهم وركابهم من أموال المشركين ، والغنائم وهو ما أصيب من أموال أهل الحرب وأوجف عليه المسلمون الخيل والركاب يقال غنمت أغنم غنما و غنيمة و الغنائم جمعها . ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١٢ ، ص ٤٤٦ .
٢٤- السقاطية: ناحية بكسكر من أرض واسط وقع عندها أبو عبيد الثقفي بالنرسي صاحب جيوش الفرس فهزمه شر هزيمة . ينظر: ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ)، معجم البلدان، دار الفكر المعاصر، (بيروت-١٤١٣هـ)، جـ٣، ص ٢٢٦ . وكسكر كورة واسعة قصبتها اليوم واسط القصبة التي بين الكوفة والبصرة وكانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطا خسرو سابور. ينظر: ابن عساكر، معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٦١ .
٢٥- النرسيان : هو نوع من التمر كان خاص بملك الفرس ولا يأكله غيره الا من اكرمه به . ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ٦، ص ٢٣٠ .
٢٦- الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٦٣٥-٦٣٦ .
٢٧- ابن اعثم الكوفي ، الفتوح ، جـ٢ ، ص ٦٤ .
٢٨- المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٢١٢ .
٢٩- ينظر: تفريج الله تبارك وتعالى على عباده في معركة تبوك واغاثتهم بالماء بعد ان اوشكوا على الهلاك من العطش . ينظر: ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، (بيروت – ١٩٦٠) ، جـ٢ ، ص ١٦٧ ؛ المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت٨٤٥هـ) ، امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والاموال والحفدة والمتاع ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة لجنة التأليف والنشر، (القاهرة – ١٩٤١) ،ص٤٥٦ ؛ السيوطي ، ابي الفضل جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ) ، كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب ، دار الكتب العلمية ، (بيروت – ١٩٨٥) ،جـ١ ، ص٤٥٧،٤٥٤ .
٣٠- الرقاق البيض: الرقاقُ بالضم الخبز المنبسط الرقيق نقيض الغليظ يقال خبز رقاق و رقيق . ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ١٠، ص ١٢٣ .
٣١- ابن الاثير ، الكامل ، جـ٢، ص ٢٥٩-٢٦٠ ؛ الكلاعي ، ابي الربيع سليمان بن موسى الاندلسي (ت٦٣٤هـ) ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي ، عالم الكتب ، (بيروت – ١٩٩٧) ،جـ٤ ، ص٨٥ .
٣٢- ابن اعثم الكوفي ، الفتوح ، جـ١ ، ص ٢٩٧-٢٩٨ .
٣٣- البلاذري ، فتوح البلدان ، جـ١ ، ص ٢٥٦ .
٣٤- المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٢١٧-٢١٨ .
٣٥- ينظر: دروزة ، تاريخ الجنس البشري ، جـ٧ ، ص٨٠ .
٣٦- ابن اعثم الكوفي ، الفتوح ، جـ١ ، ص ص١٣٦_١٣٨ .
٣٧- المفازة: البرية القفر وتجمع المفاوز ويقال فاوزت بين القوم وفارضت بمعنى واحد والمفازة المهلكة ، سميت الصحراء مفازة لأن من خرج منها وقطعها فاز وقال ابن شميل المفازة التي لا ماء فيها وإذا كانت ليلتين لا ماء فيها فهي مفازة وما زاد على ذلك كذلك وأما الليلة واليوم فلا يعد مفازة . ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، جـ٥ ، ص ٣٩٣ .
٣٨- كعمت: الكعام شيء يجعل على فم البعير كعم البعير يكعمه كعما فهو مكعوم و كعيم شد فاه وقيل شد فاه في هياجه لئلا يعض أو يأكل و الكعام ما كعمه به والجمع كعم ، وفي الحديث دخل إخوة يوسف عليهم السلام مصر وقد كعموا أفواه إبلهم . ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١٢ ، ص ٥٢٢ .
٣٩- الجفان: جذرها جفن ، والجمع اجفن واجفان وجفون ، والجفنة مفرد جفان وهي كالقصعة اناء من الجلد او سواه . ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ١٣، ص٨٩ .
٤٠- ابن اعثم الكوفي ، الفتوح ، جـ١ ،ص١٧٧ .
٤١- المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢١٥ .
٤٢- دروزة ، الجنس البشري ، هامش ص٦٥ .

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن الاثير، محمد بن محمد بن عبدالواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق ابي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، ط٢، (بيروت-١٩٩٥م) .
٢- ابن اعثم الكوفي ، ابي محمد احمد (ت ٣١٤هـ) ، الفتوح ، دار الندوة الجديدة ، (بيروت – ١٩٦٨) .
٣- البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر(٢٧٩هـ)،فتوح البلدان ،مكتبة النهضة المصرية ،(القاهرة-لا.ت) .
٤- الجنابي ، خالد جاسم ، تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر الاموي ، (بغداد – ١٩٨٤) .
٥- دروزة ، محمد عزة ،تاريخ الجنس العربي ،مطبعة المكتبة العصرية ،(بيروت-١٩٦٢م) .
٦- ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، (بيروت – ١٩٦٠) .
٧- السيوطي ، ابي الفضل جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ) ، كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب ، دار الكتب العلمية ، (بيروت – ١٩٨٥) .
٨- الطبري ،أبي جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، ط٤ ،(مصر - ١٩٧٩م) .
٩- ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ)، معجم البلدان، دار الفكر المعاصر، (بيروت-١٤١٣هـ) .
١٠- الغزالي، مشتاق بشير، مؤن المسلمين في غزوات عصر الرسالة ، بحث غير منشور .
١١- ابن كثير، ابي الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، (بيروت-لا.ت) .
١٢- الكلاعي، ، ابي الربيع سليمان بن موسى الاندلسي (ت٦٣٤هـ) ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي ، عالم الكتب ، (بيروت – ١٩٩٧) .
١٣- الملاح، هاشم يحيى
_ حكومة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، مطبعة المجمع العلمي ، (بغداد _ ٢٠٠٢) .
_ الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، مطبعة جامعة الموصل ، (الموصل-١٩٩١) .
١٤- المناوي،محمد عبدالرؤوف،(١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر، (بيروت-١٩٨٩) .
١٥- ابن منظور، محمد بن مكرم الافريقي المصري(ت ٧١١هـ) ، لسان العرب ، دار صادر ،(بيروت-لا.ت) .
١٦- ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت١٥٢هـ)، الخراج ، ط٢، (القاهرة-١٣٥٢هـ) .